الأضحية والقرابين

عند مختلف الأمم وفى شتى الشرائع

بقلم الدكتور على عبد الواحد وافى

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب

يدلنا البحث فى نشأة الأديان وتاريخها على أن فكرة التقرب للعبودات بتقديم الأضاحى والقرابين ، واتخاذها براقا تصعد عليه رغبات عالم الأرض ومخاوفه الى عالم السماء ، والتوسل بها لجر ما تبتغيه الأفراد والمجتمعات من منافع ، ودفع ما يتهددهما من أضرار ، كل أولئك قد نشأ مع الانسانية ، وظل ملازما للتفكير الدينى فى مختلف مراحله ، وسيظل باقيا ما دامت العقائد والعبادات . فلم يخل من هذه الشعيرة دين من الأديان ، ولم تعر منها حياة شعب من الشعوب . جاءت بعبادات الطوطميين والمجوس والوثنيين والصابئة والمانوية وعبدة الكواكب والحيوان ، كما جاءت بشرائع الموحدين من اليهود والمسلمين . تعثر عليها فى أبسط مظاهر التدين وأكثرها اضطرابا ، كما نصادفها فى أرقى أشكاله وأشدها دقة وإحكاما . ولا أدل على قدمها وعموم انتشارها من الكلام عنها بجميع أسفار " العهد القديم " ومن أن القرآن الكريم يحدثنا عن شكل من أشكالها جرى العمل به فى عهد أبى البشر نفسه إذ يقول : "واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . . . الآية".

وقد جرت هذه العبادة الدموية على بنى الانسان كثيرا من المصائب والويلات . فكم أثكلت أمهات ، وأيتمت أطفالا وأيمت نساء ، وكم ذهبت فى سبيلها أرواح بريئة طعمة للنيران وغذاء للسمك . وكم حملت الآباء على تقديم أبنائهم قربانا لمذابح اللاهوت وإزهاق أرواحهم بأيديهم . وكم دعتهم الى وأد بناتهم وإغراقهن ابتغاء مرضاة الآلهة . وكم دمرت من مدن وقضت على شعوب .

وذلك أن الضحايا فى أقدم أشكالها وعند طائفة كبيرة من الامم المتحضرة كانت تقدم من بنى الإنسان على اختلاف فى نوعها باختلاف الأمم والشرائع، وتبعا للأحوال المحيطة بالتقدمة والأسباب الداعية اليها . فقد كانت أحيانا من الإناث، وكانت تارة من الأطفال، وتارة من الشبان والشيوخ . غير أنه يظهر من استقراء هـذه الحالات عند مختلف الأمم وفى شتى مراحل التاريخ أن معظم الضحايا الانسانية كانت تقدم من طائفتين: من الأطفال ذكورهم وإناثهم (ولاسيما أول من يولد منهم لأبويه) . ومن البنات الأبكار . ويظهر كذلك أن معظم من كان يضحى به من غير هاتين الطائفتين كان يؤخذ من أسرى الحرب والأرقاء والمذنبين . غير أنه فى أحوال غير قليلة كانت الضحايا تقدم من طبقات راقية من الشعب. فكثيرا ما قدمت أمم ملوكها أنفسهم قربانا لمعبوداتها .

وإذا لاحظنا أن المناسبات التى كانت تقتضى التضحية كثيرة الحدوث والتكرر ، وأن الإحجام عن التضحية عند وجود ما يقتضيها كان — فى نظر هذه الأديان — شيئا إذا تتفطر منه السموات ، ويثير غضب الآلهة ، ويصيب نكاله جميع أفراد المجتمع الذى حدث فيه التقصير ، إذا لاحظنا هذا سهل علينا أن ندرك كيف كانت هذه العبادة، فى أقدم أشكالها، عامل إجرام ودمار ومصدر مصائب وويلات . وحسبنا دليلا على ذلك أن قبائل "الأزتك" وحدها (وهم السكان الأصليون لبلاد المكسيك) كانت إلى عهد غير بعيد تقدم من الضحايا الإنسانية ما يبلغ عدده خمسين ألفا كل عام .

غير أن ارتقاء التفكير الدينى ، وإصلاح ما علق به فى مراحله الأولى من خطأ فى فهم الآلهة وصفاتهم وما يتطلبه رضاهم، ونزعة المجتمعات إلى تنزيه معبوداتها عن القسوة والتشفى وعن الحاجة إلى ما يقدمه إليهم بنو الإنسان وجعلهم أغنياء عن العالمين ، واتساع نطاق العلوم وانتشار الشرائع السماوية والكتب المقدسة ... كل أولئك قد عمل على احترام الحياة الإنسانية ، فقضى على هذا الشكل الوحشى من التضحية واستبدل به أشكالا أخرى لا تنبو عن الخلق الصحيح ولا تتنافر مع مقتضيات العمران .

عندئذ ظهرت التضحية ببعض أنواع الحيوان كالبقر والغنم والمعز ، وببعض أنواع الطيور كالدجاج والإوز والبط .

وظهـرت أنواع أخرى من القربان لا تقتضى إهراقا للدم كالتقرب بما يستخرج من الحيوانات والتقرب بالنباتات كالحنطة وسنابل القمح والدقيق الممزوج بالزيت ، والتقرب بما يصنع من النبات كالخبز والفطير .

وقد كان لظهور الزراعة أثر كبير فى هذا التطور . فقد هذبت الزراعة كثيرا من أخلاق الإنسان وطباعه . فبفضلها كثرت كميات غذائه النباتى وقل مقدار استهلاكه من اللحوم . فزالت وحشيته واعتدل مزاجه ، وهدأت طباعه ورقت مشاعره . فاستبدل بكثير من تقاليده الدموية وعقائده الوحشية الأولى نظما أخرى أدنى إلى الإنسانية وأقرب إلى مقتضيات العمران . ولذلك أخذت القرابين الإنسانية والحيوانية تقل شيئا فشيئا بعد ظهور الزراعة ، وتحل محلها القرابين النباتية المؤلفة من سنابل الغلال والخبز والفطائر وما إلى ذلك . فأصاب غذاء الآلهة وطباعها من أسباب التهذيب والرق ما أصاب غذاء الأناسىّ وطباعهم ! .

وظهر كذلك نوع غريب من التضحية وهو التضحية الصورية كالتضحية بالتماثيل والصور الإنسانية (وقد انتشرت هذه العادة عند كثير من الأمم القديمة والحديثة) ، وكإهراق الدم من عضو من أعضاء الضحية دون القضاء على حياتها (وقد اتبع هذا النظام فى كثير من معابد قدماء الإغريق وبخاصة معبد الإلهة أرتيميس) ، وكالاكتفاء بأعمال تمثيلية تشير إلى ما كان يعمل قديما : فعند بعض قبائل الهنود الحمر مثلا كان يكتفى فى التضحية عقب وفاة الزوج ، بأن يؤتى بكومة حطب وتشعل النار فيها ، ويؤتى بزوجة المتوفى وتمد على هذه الكومة وتظل كذلك حتى يقرب اللهب منها . وكالتضحية بخيال الإنسان : فبعض شعوب البلغار ، عند ما يشرع الواحد منهم فى بناء جديد ، يترقب أول مار بجوار البناء فيقيس ظله بخيط ويضع هذا الخيط تحت أول حجر يوضع فى العمارة ، ويعتبر هذا تضحية . ويزيد لديه هذا الاعتبار قوة أنه يعتقد أن صاحب هذا الظل لا بد أن يموت عما قليل . وهذا هو أغرب أنواع التضحية ، ولا يختلف فى دلالته عن النوع السابق : فكلاهما تمثيل لتضحية إنسانية كانت متبعة قديما .

وقد اختلفت الضحايا والقرابين فيما يتعلق بأساليب تقديمها ، كما اختلفت فيما يتعلق بنوعها . غير أن أشهر هذه الأساليب وأكثرها انتشارا فى الأمم هو تقديم الضحية إلى الآلهة بإلقائها جميعا أو بعض أجزائها فى النار وانتشار الدخان المنبعث من حرقها فى أرجاء المذابح والهياكل المقدسة وتصاعد رائحتها " التى تعجب الآلهة " (كما تقول التوراة) فى طبقات الفضاء . وهذه الطريقة وحدها هى التى أقرها " العهد القديم " فى جل أنواع القرابين ، حتى فى قرابين النبات وما يصنع منه كالدقيق والفطائر ، كما تنص على ذلك الإصحاحات الأول والثانى والسادس والسابع وغيرها من سفر اللاويين الذى جاء معظم آياته وقفا على بيان أنواع الضحايا وأحكامها وأوقاتها وكيفية تقديمها . ولا غرابة فى ذلك ، فإن هذا السفر قد جاء لبيان وظائف اللاويين (أفراد قبيلة من قبائل بنى إسرائيل ، وتتألف من

أولاد لاوى أحد أبناء يعقوب) وتفصيل حقوقهم وواجباتهم نحو بقية قبائل اليهود . وأهم الوظائف التى نيطت بهم كانت تتصل بالإشراف على المذابح وأعمال التضحية وتقبل القربان وتقديمها .

ومن طرق التقديم كذلك طريقة الاكتفاء بالذبح وإهراق الدماء . وهى الطريقة التى أقرها الإسلام فى الأضحى والهدى وذبائح التكفير لإغفال نسك من مناسك الحج أو عدم التمكن من القيام به لعذر أو إحصار ونحو ذلك .

ومنها طريقة الوأد ، وهى دفن الضحية حية . وقد اتبعت هذه الطريقة عند شعوب كثيرة منها بعض قبائل العرب فى الجاهلية . فإن وأد البنات الذى انتشر بين قبائل طىء وتميم وربيعة وكندة لم يكن فى الحقيقة إلا شكلا من أشكال التضحية لأصنامهم ومعبوداتهم ، كما حققت ذلك فى مقال لى بالفرنسية نشر بمجلة L'Egyptienne (انظر عدد يوليه سنة ١٩٣٢ صفحة ٢٥ وتوابعها) .

ومنها كذلك طريقة إغراق الضحية فى الأنهار المقدسة (كما جرت العادة عند قدماء المصريين) وطريقة خنقها ، وطريقة سدّ فمها بالطين ، وطرق تعذيبها بمختلف الوسائل ، وطريقة إلقائها من شاهق ، وطريقة انتحارها عن اختيار منها بترديها من قمة عالية ... وهلم جرا .

* * *

أما المتقرب اليهم ، فباستقراء هذه العبادة عند مختلف الأمم وفى شتى الشرائع يظهر أنهم لا يكادون يتجاوزون الطوائف الآتية :

(١) الآلهة على اختلاف أنواعها مع تفاوت بينها فى مقدار الحرص على هذه العبادة . وأشدها رغبة فى القرابين النار عند المجوس والكواكب والأنهار عند عابديها .

(٢) القديسون والأولياء . وقد انتشر التقرب اليهم بالقرابين عند أمم كثيرة . ولا يزال العامة ببلاد الصعيد وغيرها من بلاد القطر المصرى ينذرون الضحايا ويقدمون الذبائح لمختلف الأولياء ، ولا سيما السيد أحمد البدوى الذى تنذر له بالقرى المصرية عجول تسمى عجول السيد تربى بعناية بالغة وينزلها الفلاحون منزلة تقرب من منزلة التقديس ويحجون بها إلى طنطا عند اقتراب مولد السيد البدوى ليذبحوها أمام ضريحه . وغنى عن البيان أن أعمالا كهذه لا تقرها شريعتنا الغراء .

(٣) أرواح الموتى. وقد انتشرت عادة التقرب للموتى بالضحايا ابتغاء مرضاتهم وخشية غضبهم على الأحياء عند طائفة كبيرة من الأمم الانسانية قديمها وحديثها ، و بخاصة قدماء المصريين. ومن الغريب أن آثار هذه العادة ظلت باقية إلى عصرنا الحاضر. فكثير من المصريين عوامهم وخواصهم فى عصرنا الحاضر يرى من الضرورى أن تذبح ضحية أوضحايا من العجول أو الخراف أو كليهما تحت نعش الميت عقب خروجه من منزله إلى حيث يوارى التراب . ومن الواضح أن هذا أثر من آثار الشرك يتعارض كل التعارض مع مبادئ ديننا الحنيف .

(٤) الملوك والزعماء السياسيون والدينيون . وقد سادت عادة التقرب اليهم بالضحايا والقرابين فى بعض الشعوب الهمجية على الأخص .

هذا وقد كان يعتقد قديما أن المتقرب اليهم يستفيدون ماديا من الضحايا والقرابين . فقد ساد الاعتقاد عند بعض الأمم أن الآلهة تنتفع فى غذائها بلحوم الأضاحى أو بلحوم بعض أعضائها . ولذلك يحرم عند هذه الأمم أكل الناس منها جميعها أو بعضها . واعتقد بعض الشعوب التى كانت تقدم الضحايا الانسانية قربانا للآلهة والموتى أن المتقرب اليهم يتخذون من هذه الضحايا عبيدا وخدما يسخرونهم فى قضاء حاجاتهم . ووصمت بعض الأمم آلهتها بصفات القسوة وحب الدماء والتلذذ بمنظر إزهاق الأرواح . فكانوا يقدمون اليها الضحايا تهدئة لهذه الميول الدموية ، و إتقاء لشرها وتأمينا على حياة الجماعات .

وقد قضت ديانات التوحيد على كل هذه الأساطير ، وجعلت التضحية مجرد مظهر من مظاهر تقوى الله وشكره وامتثال أوامره ، والإحسان للفقراء ، والبر بالمساكين . و إلى هذا يشير قوله عز وجل " ... فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير " وقوله أيضا " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين " .

على عبد الواحد وافى